JOURNAL OF THE ARAB AMERICAN UNIVERSITY
مجلة الجامعة العربية الأمريكية للبحوث

قراءات جديدة في عصري التمدن: الأول والثاني من تاريخ فلسطين القديم؛ من بناء المدن إلى قيام إمبراطورية الهكسوس الكنعانية

فيصل زكارنة
باحث مستقل، علوم وآثار
الباحث المراسل: faisalz2012@yahoo.com

Received: 14/5/2025. Revised: 22/5/2025. Accepted: 22/9/2025. Published: 30/06/2026
DIO: 10.35517/AAUP-2026.V12.2.8

الملخص

يتناول البحث مرحلتين زمنيتين أساسيتين من تاريخ فلسطين القديم وعموم كنعان واللتين اصطلح على تسميتهما بعصري التمدن: الأول والثاني، وهما العصر البرونزي المبكر والبرونزي المتوسط. فقد شهد هذان العصران نقلة نوعية حضارية، أطلقها الكنعانيون مع بداية العصر البرونزي المبكر، شملت مختلف الميادين، وأبرزها بناء المدن المحصنة وتطور الزراعة وظهور الملامح الأولى للأبجدية الكنعانية وغيرها، وانتهت مع نهاية حكم الهكسوس الكنعانيين في كل من مصر وكنعان.

الأهداف: يقدم البحث قراءة جديدة، تطرح تعريفاً حاسماً للكنعانيين استناداً إلى علم الجينات والهندسة الوراثية، ويتناول أبرز معالم حضارتهم المادية وغير المادية، التي شكلت أساسا لعصري التمدن: الأول والثاني في فلسطين. ويفند البحث الادعاءات التوراتية المزعومة حول بعض الأحداث التاريخية التي شوهت تاريخ تلك الفترة الزمنية، وأهمها الغزو أو الهجرة الأمورية لفلسطين وعموم كنعان، وما رافقها من هجرة مزعومة للنبي إبراهيم وعائلته والتي تعدّ بداية التاريخ التوراتي. كما يركز البحث على تطور البنى السياسية الكنعانية ونضوجها، والتي تمخض عنها قيام إمبراطورية كنعانية مثلت أول دولة مركزية للكنعانيين في المنطقة، وهي دولة الهكسوس، وهذا ما يدحض آراء كثير من الباحثين حول عدم تمكن الكنعانيين من إقامة دولة مركزية لهم، وانحسار تجربتهم السياسية في نظام دولة المدينة.

المنهجية: يعتمد البحث المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي، وذلك بالاستناد إلى تحليل الروايات التاريخية والنقد العلمي للكشف عن التحريفات. إلى جانب منهجية جديدة بالاستناد إلى نتائج الدراسات الجينية وعلوم البيئة والمناخ، وتقديم قراءات حديثة ومحايدة.

النتائج: يسهم البحث في تقديم رؤية متكاملة جديدة حول الكنعانيين ومعالم دورهم البارز في تلك الفترة، تستند إلى الأدلة العلمية الناتجة عن التنقيبات الأثرية الحديثة، والبيانات التاريخية المحايدة، إلى جانب نتائج الدراسات الجينية وعلوم البيئة والمناخ. إن كل تلك القراءات الجديدة تقدم مشهداً واقعياً شاملاً لعصري التمدن: الأول والثاني، بوصفهما يشكلان علامة بارزة في تاريخ فلسطين القديم.

الكلمات المفتاحية : الكنعانيون، تاريخ فلسطين القديم، الدراسات الجينية، عصر التمدن الأول، عصر التمدن الثاني، الهكسوس.

المقدمة

يتناول هذا البحث فترة زمنية هامة جداً من تاريخ فلسطين القديم، والمتمثلة بملامح المشروع الحضاري للكنعانيين الذي أطلقوه خلال العصرين: البرونزي المبكر والبرونزي المتوسط، اللذين سميا بعصري التمدن: الأول والثاني، حيث أسهم هذا المشروع الحضاري في إحداث تطور نوعي في مختلف ميادين الحياة ومجالاتها.

مشكلة البحث: تتركز مشكلة هذا البحث في توضيح التفسيرات غير العلمية التي قدمت لوصف أحداث عصري التمدن: الأول والثاني، خاصة الادعاءات التوراتية حول غزو أقوام خارجية لفلسطين، إلى جانب طرح تلك التفسيرات لقراءات غير واقعية، شملت عديدا من أحداث تلك الفترة، وخاصة فيما يتعلق بهوية الهكسوس ودولتهم. وفي هذا السياق فإنه يمكن تلخيص مشكلة البحث بالسؤال الرئيسي التالي: هل أطلق الكنعانيون مشروعاً حضارياً متكاملاً في الفترة الزمنية الممتدة من بداية العصر

البرونزي المبكر، وحتى نهاية العصر البرونزي المتوسط؟ وما هي أبرز ملامح ذلك المشروع وطبيعته؟ كما أن هذا البحث يجيب عن الأسئلة الفرعية التالية:

1. من هم الكنعانيون؟ وما هي الحدود الجغرافية لأرضهم؟ وما هي أبرز الادعاءات التوراتية حول أصولهم ومصيرهم؟
2. ما هي ملامح عصر التمدن الأول والذي أطلقه الكنعانيون في العصر البرونزي المبكر، خاصة على صعيد بناء المدن ونشوء نظام دولة المدينة الكنعانية، وغيره؟
3. ما هي أسباب انهيار المراكز الحضارية الكنعانية وانتهاء عصر التمدن الأول، وأهم الفرضيات المتعلقة بذلك الحدث الأساسي في تاريخ فلسطين القديم، خاصة الفرضيات التوراتية؟
4. هل تعرضت فلسطين وعموم بلاد كنعان لغزو الجماعات الأمورية في نهاية عصر التمدن الأول؟
5. ما هي ملامح التطورات الحضارية والتي انطلقت مع بداية العصر البرونزي المتوسط، وسُميت بعصر التمدن الثاني؟ وما هي أبرز ميادين تلك التطورات؟
6. من هم الهكسوس؟ وكيف نشأت دولتهم؟ وما هي طبيعتها وحدودها الجغرافية؟ وما علاقة الكنعانيين بهم؟
7. كيف أسهمت بيانات علوم البيئة والمناخ وعلوم الجينات والهندسة الوراثية في تقديم قراءة علمية محايدة لأحداث عصري التمدن: الأول والثاني في فلسطين، ووقائعهما، وتفنيد الادعاءات التوراتية الخاصة بهذه المرحلة الزمنية الهامة؟

أهمية البحث: يكتسب هذا البحث أهميته من كونه يسلط الضوء على أحداث فترة زمنية هامة وجوهرية في تاريخ فلسطين القديم. فإن بناء المدن ونشوء نظام دولة المدينة وتطوره إلى الدولة المركزية الكنعانية، إلى جانب التطور البارز في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها، كلها عوامل أسهمت في رسم المشهد الحضاري لعصري التمدن: الأول والثاني، ومن الضروري تقديم قراءة عادلة ومنصفة لذلك المشهد الحضاري الهام، وتظهر جلياً تلك الأهمية لهذا البحث من خلال الأدوات الحديثة التي اعتمدت الدراسة لتقديم قراءات جديدة لعصري التمدن: الأول والثاني، وذلك بالاستناد إلى علوم جديدة ذات صلة تتمثل في علوم الجينات والهندسة الوراثية، وعلوم المناخ والبيئة.

واستناداً إلى بيانات تلك العلوم الجديدة، ونتائجها، قدم البحث تعريفاً جديداً ومحدداً للكنعانيين وأصولهم ومكانتهم التاريخية الحقيقية ومصيرهم، وهو ما يشكل أهمية بارزة في المفهوم والإطار النظري لهذا البحث. أما من الناحية العلمية، فتكمن الأهمية في هذا البحث في أنه قدم قراءات مغايرة لما هو معهود في الأبحاث والدراسات التاريخية، وهذه القراءات استندت إلى معايير علمية واضحة ومحددة، تختلف عن تلك المعايير المتحيزة والتي استندت إليها الدراسات التوراتية الموجهة نتائجها مسبقاً بحكم مرويات العهد القديم. أما الأهمية العملية، فيعدّ هذا البحث إضافة نوعية جديدة إلى مكتبة الباحث والطالب في علوم التاريخ والإنسان، فهو يستند إلى مناهج علمية جديدة، قدمت نتائج ذات مصداقية عالية، تضيف للأبحاث والدراسات قيد الإعداد نظرة جديدة على ملامح تاريخ فلسطين القديم.

أهداف البحث: يمكن تحديد أهداف هذا البحث على النحو التالي:

1. تقديم تعريف محدد للكنعانيين، وتحديد أصولهم ودورهم الحضاري في التاريخ القديم لفلسطين ومنطقة شرق المتوسط.
2. تقديم قراءة علمية محايدة لملامح المشروع الحضاري الكنعاني في فلسطين خلال عصري التمدن: الأول والثاني.
3. تفنيد الادعاءات التوراتية حول الكنعانيين والأحداث التاريخية البارزة في عصري التمدن: الأول والثاني.
4. تطوير سياقات البحث التاريخي التقليدي ومفاهيمه، وذلك من خلال اعتماد أدوات ونوافذ علمية أخرى تستطيع تقديم قراءات حاسمة لأحداث التاريخ القديم.

منهجية البحث: تم اعتماد منهجين علميين في هذا البحث، وهما المنهج التاريخي، والمنهج الوصفي التحليلي، وذلك من خلال وصف البيانات التاريخية وتحليلها ونقدها بأسلوب علمي، لتصحيح مسار تلك البيانات الخاصة بفترة العصرين: البرونزي المبكر والمتوسط من تاريخ فلسطين القديم، إلى جانب استخدام منهج علمي جديد، وذلك بالاستناد إلى بيانات الدراسات الجينية الحديثة ونتائجها، فقد شهد علم الجينات والهندسة الوراثية تطوراً ثوريا، يمكن من خلاله تقديم قراءات حاسمة لتاريخ فلسطين القديم بمختلف فتراته وعصوره، إلى جانب استخدام البيانات الحديثة من علوم البيئة والمناخ والتي قدمت تفسيرات علمية واقعية لأحداث تلك الفترة، وخاصة ما يتعلق بأسباب انهيار المراكز الحضارية الكنعانية مع نهاية العصر البرونزي المبكر.

2. من هم الكنعانيون؟

تناول عديد من الباحثين دراسة أصل اسم الكنعانيين، واستبعدوا تلك التفسيرات التي لا تستند إلى مصادر تاريخية موثقة، ومن ضمنها التفسير التوراتي لمفردة كنعان بأنها اشتقاق من المفردة السامية كنع، بمعنى انخفض وانحنى، وهو دلالة على سكان الأراضي المنخفضة؛ أي الكنعانيين. إن ذلك التفسير لم يعد مقبولاً في الأوساط العلمية، وذلك لأن الكنعانيين قد سكنوا في مختلف المناطق على اختلاف تضاريسها، فقد سكنوا في المرتفعات الجبلية والوديان والسهول والسواحل وغيرها. ويرجح الباحثون أن صيغة كيناخو الواردة في نصوص مدينة نوزي ذات الثقافة الحورية في بلاد الرافدين في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، التي تعني الصبغة الأرجوانية هي الأقرب للدلالة على أصل مفردة كنعان ومعناها، وقد وردت ـ أيضا ـ بصيغة

قريبة (كيناخا، كيناخي، كينافي) في رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. (مناصرة، 2013، ص5؛ إبراهيم، 2010، ص 11؛ حلايقة، 2024، ص 316).

وقبل أن يتم استكمال البحث في تفاصيل اسم كنعان والكنعانيين، فمن الضروري الاستهلال أولا بالتسمية الخاصة ببلاد الشام قبل الألفية الثانية قبل الميلاد، فإن كثيرا من الباحثين يجمعون على أن تسمية بلاد الشام، خاصة الجزء الشمالي منها، قد عرفت في الألف الثالثة حتى بداية الألف الثانية قبل الميلاد بأنها أرض أمورو، وهذا الاسم موثق في ألواح طينية بالمسمارية الأكادية في بلاد الرافدين (الشواف، 2006، ص93؛ إبراهيم، 2010، ص 11)، ومن هنا جاء اسم الأموريين، فكلمة أمورو مشتقة من المفردة السومرية (مار تو)، ويقابلها بالصيغة الأكادية (أمورو) وتعني جهة الغرب من موقع بلاد الرافدين في الشرق، وأقدم نص سومري يذكر تلك المفردة يعود إلى 2600 ق. م. في موقع شروباك (تل فارة)، وتطور المفهوم من الناحية الجغرافية؛ أي الجهة الغربية لبلاد الرافدين، وهي بلاد الشام، إلى المفهوم الإثني لوصف مجموعة بشرية تستقر في الغرب من بلاد الرافدين، وبدأ هذا الاستخدام الإثني إشارة إلى الأموريين ابتداء من العصر الأكادي لبلاد الرافدين حوالي 2220 ق. م. (حلايقة، 2024، ص296-297). ومع بداية الألفية الثانية، وحسب نصوص ماري المذكورة أعلاه، بدأ يظهر اسم كنعان والكنعانيين، ولتوضيح العلاقة بين الأموريين والكنعانيين، فإن عديدا من العلماء والباحثين يذهبون باتجاه أنها مجموعة واحدة غير منفصلة، عرفت بالأمورية في مرحلة العصر البرونزي المبكر، ومن ثم عرفت بالكنعانية مع بداية العصر البرونزي الوسيط، ويذكر عديد من الباحثين أن مجموعة كبيرة من العمال الكنعانيين توجهوا إلى بلاد الرافدين مع نهاية الألفية الثالثة وبداية الألفية الثانية قبل الميلاد، وخاصة في عهد سلالة أور الثالثة، وهناك سمي أولئك الكنعانيون بالأموريين؛ أي "الغربيين" لأنهم جاءوا من الغرب، ومن هنا اتخذت التسمية شكلاً اثنياً بعد أن كان جغرافياً كما ذكر سابقاً. استقر أولئك الكنعانيون في بابل وعدة مناطق أخرى من بلاد الرافدين، وتغلغلوا هناك، فتمكن بعضهم من تولي مناصب قيادية عسكرية واقتصادية، ضمن النخب البابلية، والارتقاء إلى مراتب عليا كحكام مدن وملوك، ومن ضمنهم ملك بابل حمورابي الذي ينتمي إلى أسرة كنعانية بالأصل (زودن، 2003، ص 28-29).

ويمكن تقديم تحليل وتفسير منطقي وبتسلسل زمني محكم لنشأة مفردة كنعان وتطور استخدامها للدلالة على حرفة ومهنة تختص بصناعة الصباغ الأرجواني وتجارته؛ ليستخدم مصطلحا جغرافيا فيما بعد. إن هذا التطور في استخدام المصطلح من حرفي إلى جغرافي قد حدث ـ على الأغلب ـ في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وبالاعتماد على المصادر التاريخية، فإنه يمكن توضيح ذلك التطور، فقد ذكرت نصوص مملكة ماري (تل الحريري، شمال شرق سوريا) العائدة إلى منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد، الكنعانيين بوصفهم مجموعة بشرية. وبعد ثلاثة قرون استخدمت كلمة كنعان في نصوص مملكة الالاخ (تل العطشانة شمال سوريا) العائدة للقرن الخامس عشر قبل الميلاد، للدلالة على منطقة جغرافية باسم أرض كنعان، تقع جنوب مملكة قطنا (تل المشرفة شمال شرق حمص في سوريا). ويمكن الاستنباط من ذلك التسلسل أن مفردة كنعان أو كنعاني أطلقت بداية على شخص امتهن حرفة الصباغة الأرجوانية باللونين الأحمر والأزرق، وتاجر بهذه الصباغ، تم منح هذا الاسم لعائلة ذلك الشخص، ومن ثم لقبيلته، ومن ثم لشعب انحدر من ذلك الشخص الكنعاني الذي امتهن حرفة الصباغة والتجارة بها، ليسموا فيما بعد كنعانيين، أو ـ وفقا لما هو دارج في اللغة الحديثة ـ الصباغين أو الدباغين، وتطورت التسمية لتطلق على المنطقة الجغرافية التي سكنها ذلك الشعب والتي عرفت بأرض كنعان (بلاد الشام حالياً). وتطور المفهوم الجغرافي ليأخذ شكلاً سياسياً معيناً، ورد في مراسلات تل العمارنة بعدة صيغ أكادية ومصرية (كنعان، كيناخي، كيناخنو، باكنعان)، حملت عدة دلالات، منها الإشارة إلى المقاطعة المصرية في عموم سوريا، وبالأخص الساحل الفينيقي، ودلالة أخرى تشير إلى المقاطعة المصرية (فلسطين وفينيقيا وسوريا)، وحددت تلك الدلالات بناء على طبيعة المراسلة وجهاتها (حلايقة، 2024، ص 319).

يستنتج مما سبق أن التطور النوعي في علوم التاريخ والآثار والعلوم الأخرى ذات الصلة، مكنت الباحثين من تقديم قراءات موضوعية ومنطقية مقبولة لعديد من القضايا الخاصة بالكنعانيين، وهو ما تم ملاحظته ورصده من خلال الاستعراض السابق، إلا أن هناك قضايا أخرى ما زالت مجهولة، ولم يتم تقديم إجابات حاسمة لها، حتى إن بعض تلك القراءات التي قدمها الباحثون سابقاً لم تعط ـ أيضا ـ إجابات حاسمة، بل أعطت مؤشرات حول بعض التفاصيل المتعلقة بالكنعانيين، ومثال ذلك، نشأة الكنعانيين وانتماءاتهم العرقية ومصيرهم، فهذه العناصر ما زالت غامضة وغير محسومة. لقد ظهرت في الآونة الأخيرة نوافذ جديدة يمكن استثمارها للحصول على قراءات حاسمة وشافية لكل ما هو غامض في تاريخ الكنعانيين، ولعل من أبرز تلك النوافذ ما اصطلح على تسميته بعلم الأنساب الجيني (الجينولوجيا)، فقد شهد هذا العلم تطوراً ثوريا في العقدين الأخيرين، من خلال استخدام تقنيات وأدوات مبتكرة في فحص الحمض النووي (DNA) والهندسة الوراثية التي لم تكن معروفة من قبل في البحث التاريخي والأثري. ويستند هذا البحث، فضلاً عن المراجع التقليدية التاريخية والأثرية، إلى عدة دراسات جينية خاصة بالتركيب الجيني لشعوب الشرق القديم، ومن ضمنهم الكنعانيون، وهذا ما يشكل إضافة علمية نوعية، يقدمها هذا البحث من اجل الحصول على قراءة حاسمة بشأن العناصر التي لم تتمكن العلوم الأخرى من توضيحها والخاصة بالكنعانيين. ويمكن استعراض نتائج أهم الدراسات التي تناولت التركيبة الجينية للكنعانيين، وتوضيح أصولهم ومصيرهم، على النحو التالي[1]:

[1] إن الدراسات الجينية المستعرضة قد صدرت باللغة الإنجليزية، واستخدمت في الترجمة إلى العربية بعض المفردات والإضافات لتوضيح بعض التسميات والمواقع الجغرافية، كاعتماد كلمة فلسطين بدل إسرائيل في بعض الدراسات، وإضافة تسميات فلسطينية حديثة للمواقع الجغرافية القديمة الواردة في بعض الدراسات، كتل المتسلم للإشارة إلى مجدو الكنعانية.

2.1 "تأثير التركيب الجيني القديم من العصر الحجري النحاسي في إسرائيل على الاختلاط السكاني ودوره في التحول الثقافي".

(Ancient DNA from Chalcolithic Israel reveals the role of population mixture in cultural transformation)

صدرت هذه الدراسة عام 2018، وتناولت بشكل تفصيلي متطور التركيب الجيني للكنعانيين، وأشرف عليها فريق متخصص من 12 باحثاً بقيادة إيداوين هارني Éadaoin Harney، من عدة معاهد ومراكز علمية متخصصة في علوم الجينات والآثار والإنسان. ودرس فريق البحث عينات الحمض النووي لرفات 22 شخصاً، وجدوا في كهف بالقرب من بلدة البقيعة في منطقة الجليل الأعلى، شمال فلسطين، ويعود الرفات إلى الفترة من (4500-3900ق.م.)؛ أي العصر الحجري النحاسي، وبينت تلك العينات أن سكان جنوب بلاد الشام (فلسطين) في العصر النحاسي كانوا يستمدون 57% من جيناتهم من أسلافهم الفلاحين المحليين والذين عرفوا بالنطوفيين، وذلك من العصر الحجري الحديث (النيوليتي)، و26% من جيناتهم مستمدة من الفلاحين الأناضوليين من العصر النحاسي، و17% مستمدة من فلاحي شمال بلاد الرافدين – زاغروس إيران، من العصر النحاسي. وبينت نتائج الدراسة أن التكوين الجيني لسكان فلسطين في العصر البرونزي تشكل على النحو التالي: 58% مستمدة من جينات النطوفيين المحليين من العصر الحجري الحديث، وأكثر من 40% من سكان شمال بلاد الرافدين (جبال زاغروس – إيران) من العصر النحاسي، ونسبة قليلة أو لا شيء من أناضوليي العصر النحاسي. وأوضحت الدراسة ضمن نتائجها العامة أن هناك انسجاما واستمرارية وراثية للتكوين الجيني لسكان جنوب بلاد الشام بالرغم من اعتماد ذلك التكوين على ثلاثة مصادر وراثية، هي النطوفي المحلي (النسبة الأكبر)، والإيراني، والأناضولي-8 (Harney, 2018, p 9).

2.2 "تاريخ التركيب الجيني للعصر البرونزي في جنوب بلاد الشام".

(The Genomic History of the Bronze Age Southern Levant)

صدرت هذه الدراسة عام 2020، وأشرف عليها فريق بحثي مكون من 35 باحثاً بقيادة ليلي أغرانات تامير Lily Agranat-Tamir وهم متخصصون في علوم الجينات والآثار والإنسان، وتركزت على دراسة التركيب الجيني لسكان جنوب بلاد الشام (فلسطين) في العصور البرونزية، فدرس الفريق عينات الحمض النووي لـ 73 فردا من خمسة مواقع أثرية، تعود للعصور البرونزية والحديدية في مناطق جنوب بلاد الشام (35 فردًا من تل المتسلم - مجدو، يعود تاريخ رفاتهم إلى العصر البرونزي الوسيط والمتأخر، باستثناء فرد واحد يعود تاريخه إلى العصر الحديدي المبكر، و 21 فرداً في وسط الأردن (شمال شرق عمان)، معظمهم من العصر البرونزي المتأخر. و13 فردًا من وسط فلسطين، يعود تاريخ رفاتهم إلى العصر البرونزي الوسيط، وثلاثة أفراد من تل القدح – حاصور، شمال فلسطين، يعود تاريخ رفاتهم إلى العصر البرونزي الوسيط والمتأخر، وفرد واحد من منطقة بيت معكة، شمال فلسطين، يعود تاريخ رفاته إلى العصر الحديدي). وأكدت نتائج هذه الدراسة على نتائج الدراسة السابقة، فأظهرت أن الـ 73 فردا ـ المفترض أنهم كنعانيون ـ ينحدرون من مصدرين جينيين: 1- سكان العصر الحجري الحديث، وهم المحليون الأوائل (النطوفيون). 2- سكان زاغروس (إيران – شمال بلاد الرافدين) من العصر النحاسي، وسكان الأناضول من العصر النحاسي. وأظهرت النتائج أن المجموعات 'الكنعانية' المختلفة تشبه بعضها البعض وراثيا أكثر من المجموعات السكانية الأخرى(Agranat-Tamir, 2020, 1146-1147) .

2.3 "الاستمرارية والاختلاط في التسلسلات الجينية في الألفيات الخمسة الماضية لتاريخ بلاد الشام؛ من الكنعانيين القدامى وحتى اللبنانيين المعاصرين".

(Continuity and admixture in the last five millennia of Levantine history from ancient Canaanite and present-day Lebanese genome sequences)

صدرت هذه الدراسة عام 2017، وأشرف عليها 16 باحثاً بقيادة مارك هابر Marc Haber، وهم مختصون في علوم الجينات والإنسان والأحياء الحاسوبية وينتمون إلى عدة دول. توثق هذه الدراسة، التي اصطلح على تسميتها (دراسة صيدا)، نتائج هامة خاصة بالتكوين الجيني للكنعانيين للعصر البرونزي في منطقة بلاد الشام وعلاقتها باللبنانيين الحاليين. وتبين نتائج دراسة عينات حمض نووي مستمدة من رفات خمسة أشخاص كنعانيين، سكنوا مدينة صيدا اللبنانية في العصر البرونزي المتوسط، بلغ عمر الأشخاص بحدود 3700 سنة، أن هؤلاء الكنعانيين الخمسة مستمدة جيناتهم من النطوفيين المحليين من العصر الحجري الحديث، ومن الوافدين من شمال بلاد الرافدين (منطقة جبال زاغروس/ إيران) من العصر الحجري النحاسي.

وتبين الدراسة أن هذا الاختلاط الجيني جرى في مرحلة مبكرة ما بين 4600-3500ق.م. في الحجري النحاسي، وذلك جراء تغيرات مناخية كبيرة وجفاف وقحط ضرب شمال بلاد الرافدين. ووضحت نتائج الدراسة ـ أيضاً ـ أن المجموعات الثقافية المختلفة، والتي عرفت في العصر الحديدي، مثل المؤابيين والعمونيين والفينيقيين وغيرهم، كونوا هويات ثقافية مستقلة، لكنهم يعودون إلى جذور جينية كنعانية، وهذا ما تبين من خلال مقارنات عينات صيدا مع عينات أخرى من موقع عين غزال في الأردن ومواقع أخرى.

وتبيّن الدراسة ـ أيضاً ـ أن التكوين الجيني لسكان بلاد الشام في العصر الحديدي، في الساحل والداخل، كان مستمدّاً بنسبة 93% من نظراء أولئك الكنعانيين الصيداويين الخمسة، والباقي (7%) من السهوب الأوراسية (مناطق الأناضول والقريبة منها)، على الأغلب الحثيين. وقارنت الدراسة عينات 99 فرداً من اللبنانيين الحاليين مع عينات الكنعانيين الخمسة من مدينة صيدا، وتبين أن اللبنانيين الحاليين يستمدون معظم أصولهم الجينية من الكنعانيين، ما يعني استمرارية وراثية كبيرة في بلاد الشام منذ العصور البرونزية على الأقل (Haber, 2017, 5-8).

بعد استعراض نتائج أهم الدراسات الجينية والخاصة بالتركيب الجيني لسكان منطقة بلاد الشام، وبالأخص فلسطين، منذ العصر الحجري الحديث وحتى العصر الحديدي، فإنه من الواضح أن الكنعانيين هم شعب نشأ في أرضه ونما فيها، ولم يأت من أية منطقة أخرى، وأنه امتداد طبيعي بيولوجي لأجداده النطوفيين والذين يشكلون المصدر الأساسي الغالب لجيناته، بالرغم من وجود مصادر جينية أخرى ثانوية من شمال بلاد الرافدين ومنطقة الأناضول. إن تلك الدراسات قد استخدمت تقنيات متطورة لتمييز عينات الحمض النووي المختلفة لرفات عدد كبير من الأشخاص الذين عاشوا في فلسطين وبلاد الشام، منذ العصر الحجري الحديث، وحتى العصر الحديدي وما بعده. فتلك العينات قد تم أخذها من عديد من المواقع المختلفة في فلسطين ولبنان وسوريا والأردن، وضمن فترات زمنية مختلفة، كما هو مذكور سابقاً، وقد وضعت موضع الدراسة ضمن منهج علمي بيولوجي، وضح انسجام التركيبة الجينية لسكان بلاد الشام بمختلف مناطقها منذ العصر الحجري النحاسي، وحتى العصر الحديدي، وهذا يقود إلى الاستنتاج بأن هناك شعبا ذا تركيبة جينية أصيلة وموحدة نشأ في هذه المنطقة بشكل طبيعي، وتطور فيها، وأن فرضيات بأن الكنعانيين هم عبارة عن مجموعة من الشعوب مختلطة الأجناس بثقافات وأصول متعددة قد سقطت، وسقطت معها ـ أيضاً ـ فرضيات، وخاصة التوراتية منها، بأن الكنعانيين جاءوا من جزيرة العرب ضمن هجرات الساميين الأوائل إلى منطقة الهلال الخصيب، وغيرها. وعليه، فإن كل الأسماء التي وردت في المصادر التاريخية المختلفة مثل الأموريين، والكنعانيين، والهكسوس، والفينيقيين، والآراميين، والأدوميين، وغيرهم، كل تلك المجموعات تنتمي لشعب واحد اختلفت تسمياته وفقا للأمم والمناطق المجاورة لبلاده عبر مختلف العصور. كما أن تلك الدراسات، وخاصة دراسة صيدا، قد وضحت استمرارية التركيب الجيني الكنعاني لسكان المنطقة حتى الوقت الحالي، وهذه الاستمرارية تشكل دليلاً على عدم صحة الادعاءات التوراتية بإبادة الكنعانيين وانقراضهم.

3. عصر التمدن الأول (العصر البرونزي المبكر 3200 – 2000 ق. م)

قسم العلماء والمختصون هذا العصر إلى أربع مراحل رئيسية، وهي:

3.1 المرحلة الأولى 3200 -3000ق.م.

اختلف المختصون بآثار فلسطين حول تسمية هذه المرحلة وتحديد فترتها الزمنية، فقد عدّها بعضهم بأنها مرحلة متأخرة من العصر الحجري النحاسي، وأطلق عليها ـ أيضا ـ مرحلة ما قبل التمدن، وذكروا آخرون بأنها مرحلة مبكرة من العصر البرونزي القديم. لقد تميز الشرق القديم ومن ضمنه فلسطين مع نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، بتغيرات جوهرية اجتماعية واقتصادية ومعمارية، وأبرز ما لوحظ في فلسطين في تلك الفترة، اكتشاف مدافن مقطوعة من الصخر، تعود لجماعات اتبعت ثقافة جديدة تختلف عما كان سائداً في العصر الحجري النحاسي، واستقرت تلك الجماعات في مواقع مؤقتة، لا تتسم بملامح الاستيطان الدائم، كما هو المعهود في المجتمعات الزراعية القروية، وكانت أقرب إلى المعسكرات المؤقتة أو مواقع سكن موسمية. وتشير مكتشفات تلك المدافن إلى أنها كانت بسمتها العامة مدافن جماعية تحتوي الواحدة منها بضع مئات من الهياكل، وهذا يوضح الاستخدام طويل الأمد لها. كما استخدمت الكهوف الصخرية في فلسطين لهذه الغاية ـ أيضا ـ مع وجود غرف داخل تلك الكهوف ضمن ترتيب معين للهياكل المكتشفة، ووجد مع بعض الهياكل المدفونة مخلفات لمراسم جنائزية كالأدوات الفخارية والبازلتية وغيرها. ودار جدل حول شكل المكتشفات وأصول صانعيها، فقد تم اكتشاف نمطين للفخار في فلسطين؛ الأول في الشمال، تميز بلونه الرمادي المصقول، والآخر في الجنوب، مصقول باللون الأحمر، وأعاد كثير من العلماء ذلك الاختلاف في النمطين إلى وصول مجموعتين بشريتين إلى فلسطين مع نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، وآخرون أبدوا رأياً مغايراً بأن تلك الأنماط الفخارية جاءت تطورا طبيعيا لنمط الفخار في العصر الحجري النحاسي السابق، وأن هناك استمرارية للسكان من الحجري النحاسي إلى البرونزي المبكر، وأنه لا يوجد أي إثبات علمي على حدوث هجرات إلى فلسطين في هذه الفترة (إبراهيم، 2010، ص 121-125). وهذا ـ أيضاً ـ ما تؤكده نتائج الدراسات الجينية المستعرضة في البند السابق، والتي لم تشر إلى أية هجرات حصلت بعد العصر الحجري النحاسي بشكل كبير وشامل.

وتشير الدراسات إلى وجود علاقات قوية بين فلسطين وجوارها مع نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، وهو ما تظهره عديد من المخلفات الأثرية المتبادلة بين فلسطين وكل من مصر وبلاد الرافدين والأناضول، وهو ما يعطي مؤشرا على قوة التبادل التجاري بين فلسطين وجوارها في تلك الفترة، وتحقيق رخاء واستقرار اقتصاديين، ما أدى إلى زيادة سكان فلسطين، وتطور نمط استقرارهم ليصبح على شكل مدن محصنة مستقلة، وبداية ما يعرف بمرحلة التمدن. (الهودلية، 1992، ص8؛ إبراهيم، 2010، ص 131).

لقد بدأت مرحلة التمدن بالتطور النوعي للزراعة في فلسطين، وعموم كنعان. إن ذلك التطور قاد إلى تنظيم العمل الزراعي، وبداية ظهور ما يمكن وصفها بالأنظمة التي تدير العمل وتشرف عليه، وهو ما أدى إلى انتعاش اقتصادي أسهم

في تعزيز استقرار السكان وزيادة عددهم، الأمر الذي أدى إلى توسع القرى الزراعية لتصبح مدناً، وفيما بعد شكلت نظماً سياسية عرفت بدويلات المدن الكنعانية، والتي سيتم التركيز عليها في المرحلة التالية.

3.2 المرحلة الثانية 3000-2700 ق.م

عرفت هذه المرحلة في عديد من الدراسات بأنها مرحلة التمدن الأول، ليس فقط في فلسطين، بل في عموم كنعان، فقد اتخذ الكنعانيون لأنفسهم نمطاً حضارياً باتجاه الاستقرار والتمدن، وذلك من خلال بناء المزيد من المدن المحصنة وتطويرها. أما في فلسطين، فقد انتشرت هذه المدن المحصنة في مختلف المناطق على اختلاف تضاريسها، وأصبح تأسيس تلك المدن بما يرافقه من مساحات دفاعية وسكنية، يتم بتخطيط مسبق. شكلت المدينة في هذه المرحلة وحدة سياسية مستقلة قائمة بذاتها لتشكل اللبنات الأساسية لنظام دولة المدينة، مع وجود بعض القرى الزراعية في محيطها، ومن أهم هذه المواقع: تل المتسلم (مجدو) وتل تعنك، وتل الفارعة الشمالي، وخربة الكرك، وأريحا وتل أم حماد الشرقي، وكذلك التل (عي) وتل النصبة، وتل الدوير (لخيش) وعراد وتل أبو شوشة (جازر) وتل بيت مرسيم، ورأس العين وخربة الشيخ ميصر وتل أحمد العريني، وجاوة شرق الأردن وغيرها من عديد المدن. تميزت هذه المرحلة باستعمال عجلة الفخار بشكل واسع، وتطورت صناعة البرونز في فلسطين في هذه المرحلة، فقام الحرفيون الكنعانيون بخلط النحاس بالقصدير بنسب معينة، وإنتاج أدوات ومنتجات برونزية متعددة الأشكال والوظائف (إبراهيم، 2010، ص 125-127). وفي هذه المرحلة تطورت العلاقة التجارية بشكل لافت بين فلسطين وجيرانها خاصة مصر، حيث اعتمدت الأخيرة على المواد الخام والمفقودة لديها، فتركزت الصادرات الكنعانية لمصر على العسل والخمر والزيت وخشب الصنوبر والصمغ والنحاس وغيرها من المنتجات الزراعية والمعدنية (طه، 2000، ص 205-206). وشكلت هذه المرحلة قفزة نوعية حضارية في كل المجالات، وعرفت بحضارة التمدن الأولى، وقد برزت كثير من النماذج الحضارية الكنعانية اللافتة في هذه المرحلة وما بعدها، وكان التطور الحضاري في منطقة شمال كنعان أو سوريا أسرع وتيرة من مناطق الجنوب، ومن أبرز تلك النماذج مملكة إبلا القديمة، والتي أجمع عديد من الباحثين أن سمتها الثقافية كنعانية ولغتها تعدّ اللغة الكنعانية الأولى، وتعدّ نموذجاً مبكراً للحضارة الكنعانية المدينية المزدهرة في الألف الثالثة قبل الميلاد (السواح، 2002، ص 20).

ويقع موقع إبلا القديم والمعروف حالياً بتل مرديخ، جنوب غرب حلب في شمال سوريا بالقرب من بلدة سراقب. ذكرت إبلا في النصوص الرافدية القديمة، إلا أن موقعها كان مجهولاً حتى عام 1968 حينما عثر أحد فلاحي المنطقة على تمثال مقطوع الرأس يحمل نقشاً مسمارياً، ذكرت فيه مدينة إبلا مرتين، وتمكن الباحثون من خلاله الاستدلال على موقع إبلا القديم. وقد كشفت نتائج التنقيبات للبعثات الأثرية للأعوام 1974-1976 عن كنوز الأرشيف الخاص بالقصر الملكي، والتي أكدت أن إبلا كانت مهدا لأول حضارة مدينية مبكرة في كنعان. واحتوى الأرشيف المكتشف على أكثر من 17 ألف وثيقة ملكية، حيث يعدّ أقدم أرشيف رسمي في العالم، واحتوت الرقم المكتشفة على معلومات وبيانات اجتماعية واقتصادية وسياسية، توضح أن مملكة إبلا كانت دولة مزدهرة وقوية في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، وأن جذورها امتدت لما قبل ذلك التاريخ. كما وضحت الوثائق أن إبلا كانت ممتدة جغرافياً لتشمل أكثر من 14 ولاية إدارية، وأنها اعتمدت نمطاً اقتصادياً متطوراً يقوم على الزراعة والتجارة بشكل أساسي (شعبان، 2013، ص 7-12).

3.3 المرحلة الثالثة 2700- 2300 ق.م

مع بداية هذه المرحلة استمر تطور المدن وانتشارها، إلا أنه ورد فيها ـ أيضا ـ حالات هجران ودمار لمدن أخرى (إبراهيم، 2010، ص 127-128). وفي دراسة تلك الحالة من الهجران والدمار، ظهرت عديد من النظريات التي حاولت تفسير ذلك الهجران، وكان من أبرزها تعرض المنطقة لغزو خارجي واسع.

تعدّ نهاية المرحلة الثالثة من العصر البرونزي المبكر بداية انهيار مظاهر الحياة المدينية في فلسطين، وعموم بلاد كنعان وانتهاء عصر التمدن الأول، وساد بعد ذلك نمط جديد، تمثل في الانتقال من حضارة مدينية قائمة على الزراعة والتجارة، إلى نمط تكيفي قائم على الرعي والزراعة البعلية المحدودة. إن تفسيرات ذلك التحول الجوهري بالاعتماد على فرضيات الغزو والهجرة لم يعد مقبولاً في الأوساط العلمية، وتركز الدراسات الحديثة على فهم العوامل الذاتية لهذا الانهيار للحضارة المدينية في ذلك الوقت، وبرزت فرضيات جديدة لافتة، تعتمد على معايير علمية، تتمثل في أن التغيرات في المناخ والبيئة لمنطقة شرق المتوسط كانت السبب الرئيسي الذي أدى إلى تدمير النظام المعيشي الزراعي، وانهيار حضارة المراكز المدينية التي قامت على ذلك النظام (طه، 2000، ص 207).

ولفهم حقيقة ما حدث، واعتماداً على بيانات علوم البيئة والمناخ، فإنه في الفترة بين 2400- 2350 ق.م، ازدادت وتيرة الاضطرابات البيئية والمناخية، وشملت معظم مناطق شرق المتوسط ومصر، فقد رصد انخفاض كبير في معدلات هطول الأمطار، وبدأت مرحلة قحط وجفاف كبيرين، واستمرت حتى 1950 ق.م، أي مع بداية العصر البرونزي المتوسط، وتميزت فترة القحط بارتفاع كبير في درجات الحرارة، وانخفاض شديد في منسوب المياه، أدى إلى انهيار زراعي عظيم، وسبب كارثة كبرى في المنطقة بأكملها، ورافق فترة القحط والجفاف تغير ديموغرافي كبير، فتناقص عدد السكان، وتغيرت توزيعاتهم في مختلف مناطق كنعان، ومن ضمنها فلسطين. ومن هنا رصدت بعض الهجرات الداخلية من مناطق جنوب فلسطين وشرقها إلى مناطق الشمال، كما رصدت بعض الهجرات للكنعانيين خارج كنعان، وانتقالهم شرقاً إلى مناطق بلاد الرافدين، وأُطلق عليهم "الأموريين" كما ذكر سابقاً، لأنهم جاءوا من منطقة الغرب، وتم توثيق هذه الهجرة في عدة نصوص رافدية. كما رصدت هجرة أخرى تمثلت في انتقال بعض الكنعانيين جنوباً إلى الجزيرة العربية. واختلفت طرق مواجهة السكان لهذه

التغيرات المناخية، وحافظت المدن الغنية بالموارد المائية في بعض المناطق من كنعان مثل سوريا وشمال فلسطين، على استقرارها، وفي مناطق أخرى تحول اهتمام السكان بالرعي وتربية المواشي بدلا من الزراعة التقليدية (تومبسون، 1995، ص 127).

3.4 المرحلة الرابعة 2300-2000 ق.م

شهدت هذه المرحلة الانتقال من البرونزي المبكر إلى البرونزي المتوسط، وفي هذه المرحلة ترسخت التحولات الجذرية في النواحي السياسية والاجتماعية والدينية والمعمارية، ليس في فلسطين فقط، بل بالشرق بأكمله، وذلك ناتج بشكل أساسي عن انهيار الحضارة المدينية؛ بسبب الكارثة البيئية والمناخية التي استمرت في هذه المرحلة، وحتى بداية البرونزي المتوسط، ولعله من المفيد التطرق مرة أخرى إلى تلك التفسيرات التي رجحت نظرية الغزو، ومن ضمنها التفسيرات التوراتية، التي ادعت أن غزوا وهجرة أمورية كاسحة تعرضت لها فلسطين ومنطقة شرق المتوسط بأكملها، وأن الأموريين هم من أنهوا حضارة العصر البرونزي المبكر، فاعتمدت تلك التفسيرات على نتائج تنقيبات عالمة الآثار الإنجليزية كاثلين كينيون Kathleen Kenyon وغيرها، فقد اكتشفت كينيون مدافن فردية تعود لهذه المرحلة الزمنية، والتي عدت نمطاً جديداً، اختلف عن أنماط الدفن الجماعي التي كانت سائدة قبل ذلك. وصنفت كينيون مخلفات بعض المدافن في أريحا لسبع مجموعات، وتوصلت لنتيجة أنها تعود لمجموعة قبلية بدوية ذات أصل واحد، ومن مخلفات تلك المدافن قطع فخارية وأسلحة وأدوات زينة مثل الخرز وقطع برونزية، وكان الهيكل يوضع بشكل قرفصائي دون مراعاة أي اتجاه، والأغلب أن رواد تلك المدافن كانوا بدوا رحلا غير مستقرين، وانتشرت هذه المجموعات، وبالتالي المدافن، ليس فقط في فلسطين، وإنما في معظم مناطق الشرق. وفسر الباحثون التوراتيون نتائج تنقيبات كينيون بأنها غزو أموري لفلسطين ومنطقة كنعان (إبراهيم، 2010، ص 171-174).

وفند كثير من الباحثين المجددين، ومن ضمنهم رواد مدرسة الحد الأدنى (المقللون)، والتي تشكلت في أواسط تسعينيات القرن الماضي نتيجة نشوء فكر تجديدي نقدي للمرويات التوراتية وتفسيراتها، ففندوا فرضية تعرض فلسطين خلال المرحلة الرابعة من البرونزي المبكر، وحتى المرحلة الأولى من البرونزي المتوسط، لغزو بدوي أموري خارجي، واعتمدوا في تفنيدهم على الدراسات المقارنة لعديد من علماء الآثار والمختصين، ومن ضمنهم كاثلين كينيون Kathleen Kenyon وأيجات ديغر Egat Diager وغيرهم، فقد أجروا مقارنات للمكتشفات الفخارية وبعض الأواني وتسلسلها عبر مختلف مراحل العصر البرونزي المبكر، وكانت النتائج تتركز في أن كل تلك المخلفات تحمل سمة ثقافية واحدة مستقرة، بالرغم من وجود بعض الاختلافات الطفيفة، كما تمت مقارنة التسلسل الزمني المفترض للغزو الأموري، مع التسلسل للمجموعات والأنماط الثقافية المحلية، وتوصلت تلك الدراسات إلى نتيجة ترجح أن سمة الاستقرار السكاني في فلسطين كانت هي الغالبة بشكل عام، كما أن سمة الرعي والبداوة كانت جزءاً من الثقافة المحلية في فلسطين، وأن هذه الثقافة انتشرت بشكل ملحوظ مع نهاية البرونزي المبكر، نتيجة للتأقلم والتكيف مع التغيرات البيئية والمناخية التي تمت الإشارة إليها في نهاية المرحلة الثالثة (تومبسون، 1995، ص130-131).

لقد فرضت التغيرات المناخية والبيئية حالة من الانعزال الاجتماعي لسكان فلسطين، وكنعان بشكل عام، مع نهاية العصر البرونزي المبكر، وهو ما أدى إلى بعض التغيرات الثقافية اللغوية مثل ما ذكر فيما يتعلق بالمدافن، والتي أصحبت فردية بعد أن كانت جماعية، ودون مراعاة تقاليد الدفن التي كانت سائدة قبل الكارثة، إلا أن هذه التغيرات لم تكن جذرية بل شكلية، ولم تنجم عن تأثير ثقافة أجنبية أو خارجية جاءت نتيجة لغزو أقوام أجانب. فالسكان المحليون في كنعان استمروا بوجودهم منذ العصر الحجري النحاسي وما قبله، وأن التغير كان لغويا وليس اثنيا، وأن نمط الثقافة المحلية التي ظهرت مع بداية البرونزي المبكر استمرت بملامحها الرئيسية حتى نهاية العصر الحديدي (تومبسون، 1995، 124).

وما يعزز تلك التفنيدات العلمية لفرضية الغزو والهجرة الأمورية نتائج الدراسات الجينية التي وردت سابقا، خاصة دراسة (إياداوين هارني) ÉadaoinHarneyوفريقه، والتي أكدت على استمرارية التركيب الجيني لسكان جنوب بلاد الشام من العصر الحجري النحاسي، وحتى نهاية العصر البرونزي، وبالتالي لم يرصد أي تدفق جيني أجنبي في فترة البرونزي المبكر (Harney & et. al, 2018, p8-9).

إن انهيار الحضارة المدينية الكنعانية مع نهاية البرونزي المبكر، أدى إلى توقف الحياة في المراكز المدينية كافة في عديد من مناطق كنعان، وظهر التدمير في سياق شامل على طول البلاد وعرضها. وبدأ هذا الانهيار الحضاري مع نهاية المرحلة الثالثة من البرونزي المبكر، أي القرن 23 ق.م. تقريباً، ورافق هذا الانهيار اختلاف الأنماط المعيشية للكنعانيين، وأهم تلك الاختلافات التحول إلى نظام الحياة الرعوية في بعض مناطق كنعان وخاصة جنوب فلسطين وشرقها. وتزامن هذا الانهيار الحضاري في كنعان مع انتشار حالة الفوضى في مصر المجاورة، بعد انتهاء حكم الأسرة السادسة، وانهيار الدولة الأكادية في بلاد الرافدين، وتنازع الممالك الناشئة بعدها (طه، 2000، ص 206).

3. عصر التمدن الثاني (العصر البرونزي المتوسط 2000 – 1550 ق.م.)

ينسب إلى هذا العصر بروز نهضة نوعية في المجالات كافة، بعد الانهيار الحضاري الذي شهدته فلسطين ومناطق كنعان كافة، مع نهاية البرونزي المبكر بسبب الكارثة البيئية والمناخية، وهناك عديد من الباحثين الذين أطلقوا عليه عصر التمدن

الثاني أو مرحلة التمدن الثاني، فشهدت فلسطين وعموم بلاد كنعان نهضة نوعية وتطوراً بارزاً في ميادين الزراعة والبناء وفنون العمارة والصناعة خاصة الفخارية منها والأسلحة، إلى جانب التطور الكبير على صعيد التبادل التجاري مع معظم مناطق الشرق القديم، ومن أبرزها مصر القديمة. وتميز هذا العصر بتوافر المصادر المكتوبة عن فلسطين بشكل كبير (إبراهيم، 2010، ص 175-178).

ويقسم عديد من الباحثين العصر البرونزي المتوسط إلى مرحلتين رئيسيتين؛ الأولى من 2000 إلى 1700 ق. م.، والثانية من 1700 إلى 1550 ق. م.، أما المرحلة الأولى فقد تميزت بانحسار الجفاف والقحط الذي ساد فلسطين ومعظم مناطق الشرق القديم مع نهاية العصر البرونزي المبكر، وسادت فترة طويلة من الرطوبة والاعتدال المناخي، وشهدت هذه الفترة المستقرة مناخياً زيادة في عدد سكان فلسطين، وعودة الاستيطان والاستقرار في المناطق والمدن التي هجرت سابقاً بسبب الكارثة البيئية والمناخية من البرونزي المبكر. كما شهدت هذه المرحلة عودة السكان إلى النشاط الزراعي التقليدي المتمثل بنموذج الزراعة القروية في مختلف مناطق فلسطين، الأمر الذي أدى إلى انتعاش الزراعة خاصة في مجال زراعة الزيتون والأشجار المثمرة الأخرى (تومبسون، 1995، ص 128).

إن اعتدال المناخ والاستقرار البيئي المرافق له أديا إلى استقرار سياسي واجتماعي واقتصادي، ليس في فلسطين فحسب، بل في معظم مناطق الشرق. ففي مصر بدأ عهد الأسرة الثانية عشرة والمملكة المتوسطة، وفي بلاد الرافدين أسست الجماعات الأمورية الكنعانية حكما جديدا في بابل وما حولها، والتي ينتمي إليها الملك حمورابي. وفي كنعان أعيد تعمير المدن المهجورة وزاد عدد السكان، وكان ذلك واضحا في المناطق السورية والفلسطينية، كما أعيدت النهضة العمرانية لمختلف المدن الكنعانية، وازدهارها من جديد (السواح، 2002، ص 21).

ويربط عديد من الباحثين التوراتيين وعلى رأسهم وليم اولبرايت William *Albright* فترة بداية العصر البرونزي المتوسط بأنها تعاصر مرحلة الأنبياء في الكتاب المقدس العبري، خاصة النبي إبراهيم، فهو وعائلته هاجروا من أور في بلاد الرافدين في رحلته الشهيرة، حسب مرويات العهد القديم إلى كنعان، ويقدر التوراتيون تاريخ هذه الرحلة المقدسة ما بين القرنين: العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد. ويربط التوراتيون هذا الحدث بالغزو والهجرة الأمورية مع نهاية البرونزي المبكر وبداية البرونزي المتوسط (أولبرايت، 1971، ص 86؛ كفافي، 2019، ص 12). لقد تم تفنيد فرضيات الهجرة والغزو الأموري سابقاً تفنيداً علمياً قاطعاً. أما بالنسبة لهجرة الأنبياء المذكورة في الكتاب المقدس وخاصة هجرة النبي إبراهيم، فقد نقضها عديد من المؤرخين وعلماء آثار مجددون، ومن أبرزهم عالما الآثار الإسرائيليان: إسرائيل فنكلشتاين Israel Finkelstein، ونيل سيلبرمانNeil Silberman ، اللذان يؤكدان في كتابهما الشهير (التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها) على التفنيدات العلمية السابقة للغزو الأموري المفترض لكنعان. أما بالنسبة لهجرة النبي إبراهيم، فيوضحان أن تاريخ ذلك الانتقال لا يتطابق مع البيانات التاريخية والتسلسل الزمني للأحداث في تلك الفترة، ويشددان على أن عديدا من علماء الآثار التوراتيين أمثال جوردن ومازار وغيرهم حاولوا جاهدين خلق تواريخ مُفترضة تتوافق مع هجرة النبي إبراهيم، امتدت من البرونزي المتوسط وحتى الحديدي المبكر، ولم ينجحوا في إيجاد أية صلة تاريخية لذلك الانتقال المفترض (فنكلشتاين وسيلبرمان، 2007، ص 65).

وبالعودة إلى ملامح نهضة كنعان في البرونزي المتوسط، فإن أبرز ملامح تلك النهضة هي نضوج البنى السياسية للمدن الفلسطينية أمثال شكيم (نابلس)، ومجدو (تل المتسلم)، وحاصور (تل القدح) وغيرها، وتعزيز نظام دولة المدينة وتطوره، ومن الضروري الإشارة إلى أن المدن السورية شمال كنعان كانت أكثر تطوراً وامتداداً ونفوذاً، وشكلت دول مدينية مزدهرة سبقت نظيراتها في فلسطين. إلا أن المدن الفلسطينية كانت في خطى سريعة نحو التطور في مختلف الميادين. فسياسياً رُصد كثير من التحالفات السياسية بين العائلات الحاكمة لتلك المدن، إلا أنها لم تصل إلى درجة تشكيل دولة مركزية في فلسطين أو في عموم كنعان، لكنها شكلت تطوراً سياسياً لافتاً في تلك الفترة. أما على صعيد التجارة الدولية، فقد اكتسبت المدن الفلسطينية مكانة تجارية مهمة، خاصة في التجارة مع بلاد الرافدين ومصر القديمة، كتجارة الزيوت والخمور وغيرها (السواح، 2002، ص23).

وتوضح وثائق مملكة ماري (تل الحريري) في عديد من وثائق الأرشيف الملكي الأهمية التجارية لبعض المدن الفلسطينية مثل مدينة حاصور (تل القدح) شمال سهل الحولة، شرقي صفد في شمال فلسطين، والتي عدت في فترة البرونزي المتوسط مركزاً حضارياً مرموقاً. وتشير إحدى الوثائق إلى تفاصيل إقامة رسولين من بابل ومرافقيهم في حاصور في أثناء عودتهم من رحلة رسمية، وتعطي هذه الوثيقة مؤشرات حول مكانة حاصور وتطورها. وتظهر وثيقة أخرى الأهمية التجارية لمدينة حاصور، فتوثق حركة ثلاث حمولات قصدير مرسلة من عيلام عبر ماري إلى حاصور، وتلك الإرساليات مسجلة باسم ملك حاصور (يبني – أدّا)، عدت حاصور ممراً تجارياً رئيسياً إلى باقي المدن الفلسطينية وصولا إلى مصر. وفي تلك الفترة عد معدن القصدير مهماً جداً في صناعة البرونز المتطورة (الشواف، 2006، ص 155).

وشهد العصر البرونزي المتوسط، حسب عديد من الباحثين، هجرات محدودة لمجموعات سكانية إلى كنعان من مناطق متفرقة من الأناضول، عرفت بالهجرات الحورية وذلك في القرن السابع عشر قبل الميلاد، ويعتقد كثير من الباحثين أن الانتماءات العرقية لتلك المجموعات هي هندو – أوروبية. لقد تطور وجود الحوريين، خاصة في مناطق شمال بلاد الرافدين وكنعان، لتشكيل كيان سياسي عرف تاريخياً بمملكة ميتاني في مرحلة لاحقة (السواح، 2002، ص 26). وبالعودة إلى نتائج

الدراسات الجينية المستعرضة سابقاً، فلا يمكن رصد أي تدفق جيني أجنبي كبير في هذه الفترة، ما يعطي مؤشراً إلى أن تلك الهجرة الحورية كانت محدودة جداً، ودون تأثير يذكر.

ورصدت في العصر البرونزي المتوسط تحركات محدودة لمجموعات عرفت تاريخياً بالخابيرو أو العابيرو، ويجمع عديد من الباحثين على أن الخابيرو متعددو العرقيات، وهم أشبه بالمرتزقة، ولم تعرف لهم لغة أو ثقافة محددة، بل عملوا جنودا وفلاحين وقطاع طرق في مختلف المناطق الكنعانية، وأول المصادر التاريخية التي تشير إليهم هي وثائق ماري (تل الحريري)، كما أشارت إليهم بعض النصوص الحثية بوصفهم جنودا. أما نصوص الالاخ (تل العطشانة) فأشارت إليهم بوصفهم مجموعات قدمت خدمات للملوك والحكام مقابل أجور نقدية وعينية، وتشير إلى أن مناطق سكن تلك المجموعات كانت مشبوهة وتأوي المطلوبين للعدالة؛ وبذلك عد الخابيرو فئة اجتماعية متدنية، وليس مجموعة اثنية أو عرقية محددة، ولم تحتل أية مرتبة في الهيكل الاجتماعي الكنعاني في فترة العصر البرونزي المتوسط. وهذا ما يفند الادعاءات التوراتية بربط العبرانيين القدامى بفئة العابيرو ووجودهم التاريخي في معظم مناطق كنعان (السواح، 2002، ص 27).

وشهدت المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط تطوراً ملموساً في العلاقة بين كنعان ومصر، وقد تكون فلسطين ـ أي جنوب كنعان ـ تصدرت تلك العلاقة تجارياً وسياسياً، بسبب القرب الجغرافي، وتعدّ قصة سنوحي هي أولى المصادر التاريخية المصرية التي تتحدث عن فلسطين وكنعان في تلك الفترة، وعدت تلك الوثيقة سيرة ذاتية مدونة للاجئ سياسي مصري، يعود تاريخها إلى 1950 ق. م. وتتلخص تلك السيرة الذاتية بأن ضابطاً مصرياً يدعى سنوحي لجأ إلى جنوب كنعان، أي فلسطين، بعد وفاة الفرعون أمنمحات الأول، وتجول في مختلف مناطق كنعان، واستقر في إحدى ولايات رتنو العليا، وبدأت رحلة لجوئه ابتداء من الدلتا المصرية، فرافق قافلة تجارية عائدة إلى كنعان، وذهب بداية إلى جبيل، لكنه لم يستقر فيها كثيراً بسبب علاقتها الجيدة بالنظام المصري الجديد، ومن ثم انتقل إلى منطقة كيدم، وهي صحراء كنعان، ثم انتقل إلى رتنو العليا في فلسطين. وفي ضيافة ملكها عامي أنشئ الذي عينه والياً على إحدى ولاياته، وتميزت تلك المنطقة التي استقر فيها سنوحي بخصوبة الأراضي، ووفرة الأشجار المثمرة. توثق قصة سنوحي عديد من البيانات والمعلومات التاريخية لكنعان في تلك الفترة، فقد تحدثت عن الكيانات السياسية وأسمائها مثل كيدم، وهي صحراء كنعان الشرقية، وفخو وهي فينيقيا، وكوش جنوب فلسطين. وتوضح الوثيقة شكل التنظيم السياسي والاجتماعي في كنعان، ومن ضمنها رتنو، فقد ساد نظام قبلي باقتصاد رعوي. وأشارت إلى الصراعات الداخلية بين القبائل الكنعانية. وتؤكد وثيقة سنوحي أن هناك استقلالاً ذاتياً في المناطق الداخلية لكنعان التي استقبلته لاجئا سياسيا، على عكس الساحل الكنعاني الذي خضع للنفوذ المصري (طه، 2000، ص 210-211).

أما نصوص اللعنات المصرية التي تعود للقرن التاسع عشر قبل الميلاد، فتعد من المصادر التاريخية المصرية المتميزة في توفير المعلومات التاريخية عن كنعان وعلاقتها بمصر، فهي تبين مدى تنامي النفوذ المصري في كنعان، ومدى خضوع الكنعانيين لذلك النفوذ، أو تمردهم عليه. ونصوص اللعنات المصرية، أو حاملات اللعنات المصرية، هي عبارة عن كِسَر فخارية اكتشفت في مصر، وأُعيد بناء تلك الكسرات، وقراءة ما كُتب عليها. وكانت عبارة عن مجسمات أو أواني تحمل كتابات سحرية، يُكتب عليها أسماء الحكام في المناطق التي تقع تحت نفوذ مصر، وكذلك أسماء أعداء مصر، وثمّ تحطيمها، ودفن كسرها لكي تحمل بسحرها هذا الرعب إلى قلوب الأعداء، وتلحق بهم الهزيمة أمام مصر. وتغطي نصوص اللعنات معظم مناطق كنعان بما فيها فلسطين، وأعداء آخرين من مناطق أخرى آسيوية، ويستشف من تلك النصوص ـ أيضا ـ مدى تطور المدن وعمرانها في فلسطين مع بداية البرونزي المتوسط، كما وفرت تلك النصوص بيانات مهمة حول أسماء الحكام والمدن والمناطق الجغرافية المختلفة في كنعان. ومن المهم الإشارة إلى أن بعض تلك النصوص أوردت ذكر مدينة اورساليمو (القدس) وبعض حكامها، فتتوافق تلك الفترة مع فترة وصول النبي إبراهيم إلى أور سالم، واستقبال ملكها ملكي صادق له، وحسب المرويات التوراتية وتفسيراتها. وعدّ عديد من الباحثين أن نصوص اللعنات المصرية الخاصة بأورساليمو (القدس) فندت ذلك الادعاء التوراتي، فلم تتضمن اسم ملكي صادق بوصفه أحد حكام أور سالم، بل ذكرت حكاماً مثل ياقير هامو، وسازانو، وأشارت نصوص اللعنات إلى المعتقدات الدينية للمجموعات الملعونة، ومن ضمنها الكنعانيون وآلهتهم، وأبرزها بعل (الشواف، 2006، ص 87-90).

وشهدت المرحلة الأولى من العصر البرونزي المتوسط ظهور ملامح لمشروع حضاري كنعاني، نضج وانتشر في العصور اللاحقة، وتتمثل تلك الملامح فيما يعرف بالكتابة السينائية والفلسطينية الكنعانية القديمة، وهي تعد البدايات الأولى للأبجدية الكنعانية التي تطورت فيما بعد، وانتشرت في مختلف أرجاء العالم. وتتلخص تلك الملامح في النقوش الأولى التي اكتشفت في كل من وادي الحول في مصر وسيناء مواقع أخرى في فلسطين مثل لخيش (تل الدوير) والتي تعود إلى القرنين: التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد. هذه النقوش المتأثرة بالكتابة الهيروغليفية، كتبها عمال كنعانيون عملوا في المناجم لاستخراج المعادن الثمينة، سواء في وادي الحول أو في منطقة سرابيط الخادم في سيناء ومناطق أخرى جنوب كنعان، وهذه النقوش عبارة عن خطوط ورموز وصور، تمثل بداية لنظام كتابي جديد ومستقل، جرى تطويره في أوغاريت (رأس شمرا شمال غرب سوريا) في القرنين: الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، حيث عرفت بأبجدية أوغاريت، والتي كتبت بالخط المسماري. ومع بداية العصر الحديدي نضجت تلك الأبجدية بشكلها النهائي والتي عرفت بالأبجدية الفينيقية والتي تكونت من اثنين وعشرين حرفاً، وانتشرت في مختلف مناطق العالم القديم، وخاصة في بلاد الإغريق (حلايقة، 2024، ص 49).

ومع حلول القرن الثامن عشر قبل الميلاد، بدأ الضعف والفوضى يتغلغلان في مصر القديمة، خاصة مع نهاية حكم الأسرة الثالثة عشرة؛ الأمر الذي أدى إلى إنهاء النفوذ المصري على فلسطين، وبعد نهاية ذلك النفوذ بدأ يتبلور واقع سياسي

جديد تمثل في ظهور الهكسوس على المسرح التاريخي، وقيام دولتهم. والهكسوس ـ حسب المصادر الإغريقية المتأخرة ـ تعني حكام البلاد الأجنبية، ومع بداية فترة الهكسوس تنتهي المرحلة الأولى من البرونزي المتوسط، وتبدأ المرحلة الثانية والتي استمرت حتى 1550 ق.م. وقام الحكام الهكسوس، وهم عبارة عن ارستقراطية عسكرية من أصل آسيوي، بإخضاع مصر وكنعان لحكمهم ليشكلوا الأسرة الحاكمة الخامسة عشرة حسب التسلسل المصري، وقد أسسوا عاصمة لهم سميت أفاريس، شرقي دلتا النيل، وهناك جدل وآراء متضاربة حول تلك الفترة الزمنية، وأصول هذه المجموعة، وكيفية قيامهم بهذا الدور التاريخي الهام (طه، 2000، ص 209-214).

وساد عديد من النظريات في الأدبيات والدراسات الكلاسيكية حول أصول الهكسوس وصعودهم وسقوطهم، واعتمدت تلك النظريات بشكل أساسي على مصدر تاريخي متأخر من الحقبة الهلنستية في القرن الثالث قبل الميلاد، وهو نص المؤرخ المصري مانيثو، الذي أطلق الاسم اليوناني "الهكسوس" وتعني الملوك الرعاة، على أولئك الغزاة، وصور ذلك الغزو على أنه غضب إلهي حل بمصر، وأنهم قاموا بغزو مصر بوحشية وأبادوا أهلها ودمروا مدنها بلا رحمة. وذهبت تلك النظريات الكلاسيكية باتجاه أن الهكسوس لم يأتوا إلى مصر دفعة واحدة وبغزو مباشر، وإنما بدأوا بالانتقال والهجرة إليها في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، واستقروا ومكنوا أنفسهم فيها خلال خمسين عاماً. وحسب رواية مانيثو، أنهم قاموا بتعيين رئيساً لهم وهو "سالاتيس" الذي قادهم للهجوم على المصريين في مرحلة ضعفهم، وانتصروا عليهم مستخدمين العربات التي تجرها الخيول، والتي لم تكن معروفة في مصر آنذاك. أما أصول الهكسوس، فقد ربط اغلب الباحثين أصولهم وحركتهم بهجرات الشعوب الهندو-أوروبية القادمة من الشمال ما بين 2000-1800 ق.م. وبذلك فإن الهكسوس هم مجموعة مختلطة من عدة أعراق شملت حوريين وكنعانيين وآسيويين وحتى البدو العرب، وكانت تلك المجموعات بقيادة حورية، وقد اعتمد أولئك الباحثون في تحديد ذلك الأصل المختلط على نمط الأسلحة والعربات وأبنيتهم المصممة على شكل "مستطيل"، وآلهتهم وسماتهم الشخصية من حيث الشكل والبنية الجسدية، كل تلك العوامل تؤكد أن الهكسوس مجموعة مختلطة من عدة أعراق، وأن نخبتهم وموجهيهم كانوا من الحوريين الميتانيين. ويجمع أولئك الباحثون على أن امبراطورية الهكسوس التي امتدت من أعالي الفرات في الشمال وحتى بلاد النوبة في الجنوب، بنيت على الحكم بالعنف والإرهاب مستغلين تفوقهم العسكري، ولم تتسم علاقة حكامها بأية صفة إنسانية أو روحية مع محكوميها، وأن ذلك الاحتلال لم يدم كثيراً بسبب سياسة الاضطهاد والعنف التي رسخوها، وتجاهلهم لإقامة وحدة سياسية ودينية في الأراضي التي يحكمونها؛ الأمر الذي أدى إلى سقوط حكمهم في النهاية (بولس، 2018، ص 88-91).

وفي ظل تطور علوم التاريخ والآثار ظهرت نظريات جديدة تعطي صورة أوضح لماهية الهكسوس، وكيفية ظهورهم على المسرح الدولي وأصولهم الحقيقية، وتفند معظم الفرضيات التي طرحتها الدراسات الكلاسيكية سابقة الذكر. وفي هذا السياق، يطرح عديد من الباحثين أن الهكسوس بالأساس أو بسمتهم الغالبة هم الكنعانيون، وأنهم تاريخياً تواجدوا في منطقة الدلتا أو شمال مصر ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد نتيجة للتفاعل الحضاري المتميز بين مصر وكنعان، خاصة جنوبها فلسطين، وأن الكنعانيين قد شكلوا غالبية السكان في الدلتا المصرية مع حلول العصر البرونزي المتوسط، ويعد ذلك الوجود الكنعاني أو الآسيوي هو القاعدة الأساسية التي انطلق منها حكم الهكسوس (السواح، 2002، ص 24).

إن التنقيبات الأثرية الحديثة شرق دلتا النيل المصرية أظهرت أن النقوش والأختام التي تحمل أسماء حكام الهكسوس تدل على أنهم كنعانيون، وأثبتت أن ظهور الهكسوس في مصر كان عملية تدريجية للهجرة من كنعان إلى مصر، بدلا من كونه حملة عسكرية خاطفة، ومن أهم تلك التنقيبات ما قام به مانفريد بييتاك Manfred Bietak في الموقع الأثري لأفاريس (تل الضبعة) عاصمة الهكسوس، فقد بينت المخلفات الأثرية تأثيراً كنعانياً كبيرا ومتزايداً في الفخاريات والعمارة والقبور في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، في عهد السلالة الخامسة عشرة. وأكدت تنقيبات بييتاك أن الحضور الكنعاني في الدلتا جاء نتيجة لهجرة سلمية تدريجية طويلة الأمد، أدت في النهاية إلى السيطرة الكاملة على تلك المنطقة. تخالف تلك النتائج ما جاء به مانيثو الذي كتب نصه بعد أكثر من 1300 سنة من الحدث نفسه، وانه على الأغلب قد أسقط على روايته فيما يخص الهكسوس آثار الغزو الآشوري والبابلي والفارسي في القرنين: السابع والسادس قبل الميلاد، وأن ذكريات تلك الغزوات كانت ما زالت حاضرة في زمن مانيثو في القرن الثالث قبل الميلاد، وتؤكد التنقيبات الأثرية في موقع أفاريس (تل الضبعة) انتهاء التأثير الكنعاني بالكامل في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وهي الفترة التي انتهى فيها حكم الهكسوس لمصر (فنكلشتاين وسيلبرمان، 2007، ص 88-90).

أما أصل كلمة الهكسوس، وهي مفردة يونانية استخدمها مانيثو في نصه الشهير، وهي تظهر بالصيغة المصرية القديمة (حقاو خوست) وتعني حكام البلاد الأجنبية، وهي تعبير مصري قديم يطلق على النخبة السياسية الحاكمة. استخدمت هذه الكلمة المصرية لقبا لقائد قافلة تجارية كنعانية مصورة على جدران قبر خنوم – حوتب الثاني من عهد الفرعون سنوسرت الثاني من الأسرة الثانية عشرة، في موقع بني حسن، وأُطلق عليه (إبشاب حقا خوست)، ومن ذلك الوصف لقائد القافلة، فإن الهكسوس موثق وجودهم في مصر منذ القرن العشرين قبل الميلاد، أي قبل حكم الهكسوس بزمن طويل، وارتبط الهكسوس بشكل كبير بفلسطين وذلك بانتقالهم منها إلى مصر، وأن فلسطين شكلت قاعدتهم الأساسية للدفاع بعد خروجهم من مصر أمام الهجمات المصرية في نهاية حكمهم، وتؤكد كثير من المخلفات الأثرية في المواقع الفلسطينية كالجعلان والمدافن والتحصينات الدفاعية على ارتباطهم بفلسطين، حتى إن عاصمتهم أفاريس أقاموها بالقرب من فلسطين (حلايقة، 2024، ص 331-332).

ومع حلول عام 1720 ق. م. سيطر الكنعانيون بشكل كامل على منطقة الدلتا وعلى معظم مراكز القيادة المصرية كالقلاع والحصون، والتي كانت مهجورة أصلا بسبب حالة الفوضى والتخبط التي عاشتها مصر مع نهاية حكم الأسرة

الثالثة عشرة. وعين الكنعانيون في الدلتا ملكاً لهم، معلنين قيام دولة الهكسوس لتضم مصر وبلاد كنعان (سوريا وفلسطين)، وحكموا دولتهم تلك من عاصمتهم أفاريس (تل الضبعة). إن أكثر ما تميزت به دولة الهكسوس هو التفوق العسكري المتمثل في استخدام تقنيات حربية جديدة مثل العربة التي تجرها الخيول. تعود تلك المهارات والأساليب الحربية المبتكرة لفئة الماريانو، وهي ارستقراطية عسكرية كنعانية استعان بها حكام الهكسوس الكنعانيّون في إقامة دولتهم وتثبيت حكمهم مقابل منحهم الأراضي الزراعية. وينسب ـــ أيضا ـــ للهكسوس إدخال نمط جديد متطور للتحصينات الدفاعية للمواقع والمدن في مختلف المناطق التي حكموها، خاصة فلسطين، ويتمثل هذا النمط في إقامة أسوار دفاعية متينة على قاعدة أو دكة مائلة محاطة بخندق مائي، إلى جانب الأبراج ومرافق أخرى دفاعية حول المدينة. وعدت من المميزات البارزة عمرانياً وعسكرياً للمرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط (حلايقة، 2024، ص 334).

وخلافاً لرواية مانيثو والدراسات الكلاسيكية، فإن الهكسوس أثروا وتأثروا بشكل كبير في علاقة إنسانية وروحية مع المصريين، فقد عبدوا الآلهة المصرية مع استحضار بعض أنماط الآلهة الكنعانية، مثل (عنات) التي أصبحت مشهورة وانتشرت عبادتها في مصر. وأدخل الهكسوس العربات التي تجرها الخيول إلى مصر، والتي عرف اسمها بكنعانية الهكسوس بالمركبة، وهو الاسم الذي يرد في نصوص أوغاريت. وجلب الهكسوس الكنعانيون ـــ أيضاً ـــ إلى مصر معدن البرونز وصناعة الفخار وصناعة النسيج، وازدهرت التجارة في عهدهم خاصة مع جزر المتوسط وبلاد الرافدين والأناضول، واتسمت فترتهم بالرخاء والازدهار. ومن أشهر ملوك الهكسوس الكنعانيين إلى جانب الملك ساليتاس، كل من ماتي بري، أفوفيس الأول، وأفوفيس الثاني، وميروسير بعل، ويعقوب حر، وأميني، وغيرهم، واتخذ أولئك الملوك لقباً مصرياً إلى جانب الاسم الكنعاني، وتلك العادة أخذوها من الفراعنة المصريين قبلهم، فعلى سبيل المثال، اتخذ أشهر ملوك الهكسوس الكنعانيين سالاتياس لقباً مصرياً وهو سه–خا-ين-رع، والذي في العادة يكون اللقب هو تعبير عن دعم الإله المصري رع لذلك الملك وتأييد له (مقدسي، 2011، ص 354-356).

وانتهى حكم الهكسوس في مصر بطريقة تدريجية عبر فترة زمنية طويلة، ولم يكن الفراعنة المصريون في طيبة جنوب مصر (مصر العليا)، على رضا من وجود الهكسوس وعلاقتهم بهم، وخضوعهم للهكسوس ودفعهم للجزية والضرائب رغم تمتعهم بما يشبه الحكم الذاتي، وسبب ذلك لهم الشعور بالإهانة، وحفزهم عبر جيل كامل للسعي لإخراج الهكسوس من بلادهم، إلى ان جاء الفرعون أحمس من الأسرة الثامنة عشرة (1570 – 1545 ق. م.) وقام بهزيمة الهكسوس وإخراجهم من مصر عام 1550 ق. م. وطاردهم إلى شاروحين أو تل العجول (مدينة غزة جنوب فلسطين)، وهزمهم بعد حصار للمدينة دام ثلاث سنوات. لقد وثقت حملة أحمس وهزيمته للهكسوس في مصر وفلسطين في نقش شهير على قبر ضابط يدعى أحمس، شارك في حملة الفرعون أحمس الأول على الهكسوس، ويظهر هذا التوثيق سير الحملة بما فيها حصار شاوحين (طه، 2000، ص 219-220).

ويجمع معظم العلماء والمؤرخون على أن سنة 1550 ق. م. تعد نهاية العصر البرونزي المتوسط (عصر التمدن الثاني)، وهي فترة انهيار حكم الهكسوس، وتحرر مصر وعودة الحكم لطيبة المصرية، وتأسيس الأسرة الثامنة عشرة على يد الفرعون أحمس. ورغم دمار بعض المدن جراء الحروب الهكسوسية المصرية خاصة في فلسطين، فإنها تعاود النهوض من جديد، وتتخذ لنفسها سمات حضارية مجددا في إطار جديد، حمل عنوان الوصاية المصرية على مقاطعة كنعان بما فيها فلسطين (إبراهيم، 2010، ص 187).

4. الخاتمة

توصل البحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات التي تعيد النظر في عديد من الفرضيات التاريخية التقليدية حول الكنعانيين وعصري التمدن: الأول والثاني، مستنداً إلى الأدلة الحديثة والتي وفرتها التنقيبات الأثرية الأخيرة، ونتائج الدراسات الجينية وبيانات علوم المناخ والبيئة، وكان من أبرز هذه النتائج:

- إن الكنعانيين شعب يشكل مجموعة اثنية محددة، ذات انتماء عرقي منسجم وأصيل مستمد من أجدادهم النطوفيين ومن قبلهم، فالجينات النطوفية تشكل النسبة الأكبر في التركيب الجيني للكنعانيين، مع وجود إسهامات جينية فرعية منسجمة من شمال بلاد الرافدين والأناضول، ويعد الكنعانيون، كأجدادهم النطوفيين، من شعوب البحر الأبيض المتوسط، أو الشعوب المتوسطية، وأنهم طوروا ثقافة مادية موروثة من أجدادهم النطوفيين عبر الأجيال، لتشمل النواحي الاجتماعية والدينية والاقتصادية في حياتهم كافة، وأنهم نموا وتطوروا في الأراضي التاريخية التي سكن فيها أجدادهم، وهي كنعان أو منطقة بلاد الشام حالياً.
- إن كل تلك التسميات، كالأموريين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين والفلستيين والأدوميين والمؤابيين وغيرها، التي أطلقت على شعوب المنطقة منذ البرونزي المبكر وحتى العصر الحديدي وما بعده، على الأغلب تعود لشعب واحد ومجموعة اثنية محددة، وأن جزءاً من هذه التسميات، وخاصة التي شاعت في العصر الحديدي، جاءت نتيجة قيام مجموعات كنعانية بتطوير هويات ثقافية ولغوية فرعية لها، وأن الكنعانيين لم يتعرضوا للإبادة الشاملة أو الانقراض كما يدعى، وإنما بقيت سماتهم الجينية الغالبة سائدة في شعوب بلاد الشام المعاصرة (سوريا، وفلسطين، ولبنان، والأردن)؛ وذلك لأنه من غير المعقول أن يستطيع من تعرض للإبادة توريث جيناته بمثل هذا التسلسل المحكم والمنسجم ليصل إلى الوقت الحاضر.

- إن لأصول مفردة كنعان وكنعاني مدلولاتها الخاصة، فأصبح من المنطقي والمقبول تبني تلك الفرضية حول علاقة تلك المفردة بالصبغة الأرجوانية، خاصة للباحثين الفلسطينيين اعتماداً على دراسات علمية سابقة، مع ضرورة استبعاد الفرضيات كافة والتي طرحت من خلال الأدبيات والدراسات المتأثرة بالفكر التوراتي، خاصة الفلسطينية منها.
- إن ملامح التطور الحضاري خلال عصري التمدن: الأول والثاني كان تطورًا محلياً طبيعيًا، ولقد انعكس على مختلف الميادين وبشكل أساسي على بناء المدن وتحصينها، التي شكلت نواة أساسية لما عرف بنظام دولة المدينة والتي اعتبرت مراكز حضارية متقدمة، رعت استقرار المجتمعات الكنعانية فيها وتمدنها وازدهارها.
- في ضوء تطور علوم التاريخ والآثار والعلوم ذات الصلة، خاصة علوم البيئة والمناخ، وعلوم الجينات والهندسة الوراثية فقد عززت ـ بشكل كبير ـ فرضية الكارثة البيئية والمناخية سببا رئيسيا لانهيار عصر التمدن الأول، مع نهاية العصر البرونزي المبكر، وفي الوقت نفسه تقدم تفنيدات علمية محايدة للادعاءات التوراتية حول الغزو الخارجي، وهجرات الأقوام الأجنبية إلى فلسطين وعموم كنعان. وتقدم نتائج الدراسات الجينية ـ أيضاً ـ دعماً علمياً قوياً لتلك التفنيدات، فالتركيبة الجينية لسكان فلسطين وعموم كنعان لم تتغير، وحافظت على انسجامها منذ العصر البرونزي المبكر وحتى العصر الحديدي وما بعده، ولم ترصد أية تدفقات جينية أجنبية كبيرة تذكر قد أحدثت خللاً في تلك التركيبة الجينية السائدة، وذلك بطبيعة الحال لا يشمل التفاعلات الجينية الحضارية الطبيعية الناجمة عن علاقات الشعوب وتفاعلها السلمي في ميدان التبادل التجاري وغيره.
- إن الكنعانيين في بعض الظروف الاستثنائية مثل الكوارث المناخية والبيئية، قد أحدثوا تغييرا طفيفا وسطحيا في بعض ملامح ثقافتهم المادية بمختلف تفرعاتها، وهذا الأمر يعطي مؤشراً قوياً إلى مدى قدرتهم في التأقلم والتكيف مع أقسى الظروف التي يواجهونها. ولا يمكن تفسير ذلك التغيير بأنه نابع من هوية ثقافية مستقلة لجماعات غازية أو مهاجرة إلى فلسطين وعموم كنعان.
- إن الكنعانيين في أقصى تطور حضاري وصلوا إليه، قد أقاموا دولة الهكسوس التي تميزت بلعب دور حضاري بارز في العصر البرونزي المتوسط، وكان لهذا الدور تأثير عميق في ترسيخ قيم ومفاهيم جديدة في السياسة والحكم ونمط الدولة المركزية للأمم الأخرى. رغم أن بعض الباحثين يرون أن الكنعانيين لم ينشئوا دولة مركزية في تاريخهم، وأن أقصى تنظيم سياسي لهم كان نظام دولة المدينة، فإن ظهور دولة الهكسوس يفند تلك الآراء، فدولة الهكسوس دولة مركزية كنعانية بامتياز، ذات نمط امبراطوري، امتدت أراضيها عبر قارتي آسيا وإفريقيا لتشمل ليس فقط الجغرافية الكنعانية وما حولها في آسيا، بل تمتد إلى الجغرافيا المصرية حتى بلاد النوبة والسودان في إفريقيا، واستمرت لأكثر من مئة وخمسين عاماً، وتعد من أبرز ملامح عصر التمدن الثاني وأعظمه.
- ويقدم البحث توصيات محددة يمكن الاستئناس بها خاصة في مجال تعزيز البحث العلمي التاريخي بالاستناد إلى علوم جديدة تقدم قراءات علمية غير تقليدية لمختلف الفترات الزمنية لتاريخ فلسطين القديم، ويمكن صياغة هذه التوصيات على النحو التالي:
- قيام الباحثين باعتماد معايير علمية حديثة غير تقليدية لتطوير العمل البحثي التاريخي، وتركيز تلك المعايير الحديثة في استثمار أية إمكانيات متاحة للاستفادة من العلوم الأخرى لتعزيز ذلك العمل البحثي.
- دعوة الباحثين الفلسطينيين، وخاصة الشباب منهم، إلى اعتماد منهج علمي متكامل، يستند إلى معايير ذات مصداقية علمية عالية، لتكون نواة لما يمكن تسميته مشروعاً تأسيسياً لمدرة علم الآثار الفلسطيني.
- أهمية قيام الباحثين، وخاصة الفلسطينيين منهم، بتقديم أبحاث نقدية للدراسات الكلاسيكية، وخاصة التوراتية منها لتفنيد الفرضيات غير العلمية التي روجت لها تلك الدراسات.
- ضرورة قيام الجهات المختصة ذات العلاقة، خاصة في فلسطين وعلى رأسها المكتبات العامة بمختلف تصنيفاتها، بإجراء مراجعة وتقويم شاملين ضمن خطة علمية محددة لعديد من الأدبيات والدراسات الكلاسيكية والتي تصنف مراجع ثابتة ذات مصداقية عالية، ووضع آلية للتعامل مع تلك المراجع.

5. المصادر والمراجع

5.1 المراجع العربية

أولبرايت، وليم (1971)، آثار فلسطين، ترجمة الدكتور زكي إسكندر والدكتور محمد عبد القادر محمد، ط1، القاهرة، مصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
إبراهيم، معاوية (2010)، دراسات في آثار فلسطين، عمان، الأردن، دار البركة للنشر والتوزيع.
حلايقة، عصام (2024)، التراث اللغوي الكنعاني المكتوب من فلسطين، ط1، رام الله، فلسطين، المكتبة الوطنية الفلسطينية
بولس، جواد (2018)، الموسوعة التاريخية: شعوب الشرق الأدنى وحضاراته تاريخ مقارن منذ الأصول حتى يومنا. الجزء الأول، ط2، بيروت، لبنان، دار سائر المشرق للنشر والتوزيع.
تومبسون، توماس (1995)، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة: صالح علي سوداح، ط1 , بيروت، لبنان، بيسان للنشر والتوزيع
زودن، فون (2003)، مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ترجمة فاروق إسماعيل، ط 1، دمشق، سوريا، دار المدى للثقافة والنشر.

السواح، فراس (2002)، أرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي، الطبعة الخامسة، دمشق، سوريا، علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة
شعبان، تغريد (2013)، ممالك سوريا القديمة: مكتبة أيبلا وبلاد الشام، ، ط1، دمشق، سوريا، دار صفحات للنشر والتوزيع
الشواف، قاسم (2006)، فلسطين التاريخ القديم الحقيقي منذ ما قبل التاريخ حتى الخلافة العباسية، ط1، بيروت، لبنان، دار الساقي
طه، حمدان (2000)، العلاقات ما بين مصر وكنعان في العصر البرونزي، المؤتمر الخامس عشر للآثار والتراث الحضاري في الوطن العربي، دمشق، سوريا، 2000، المنظمة العربية للتربية والثقافة.
فنكلشتاين، إسرائيل وسيلبرمان، نيل أشر (2007)، التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، ترجمة سعد رستم، ط1، دمشق، سوريا، صفحات للدراسات والنشر.
كفافي، زيدان، 2019)، فلسطين خلال العصر الحديدي الأول نحو 1000-1200ق.م. دراسة مقارنة بين الروايات التوراتية والبيانات الأثرية، مجلة أدوماتو.
مقدسي، فايز، (2011)، الهكسوس في التاريخ، مجلة المعرفة، مجلد 50 (576)، وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، سوريا. ص 348-357
مناصرة، عز الدين (2013)، فلسطين الكنعانية (قراءة جديدة في تاريخ فلسطين القديم)، عمان، الأردن، الصايل للنشر والتوزيع.
الهودلية، صلاح (1992)، أنظمة الدفاع في دويلات المدن في شمال الأردن وفلسطين خلال العصر البرونزي القديم، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن.

5.2 رومنة المراجع العربية

Albright, W. (1971). The Archeology of Palestine (in Arabic). (1st ed). Egypt, Higher Council for Islamic Affairs.
Boulos, J. (2018), The Historical Encyclopedia: The Peoples and Civilizations of the Near East: A Comparative History from the Origins to the Present Day (in Arabic). Part One, 2nd ed., Beirut, Lebanon, Dar Saer Al-Mashreq Publishing and Distribution.
Al-Houdaliyya, S. (1992). Defense Systems in City-States in Northern Jordan and Palestine during the Early Bronze Age (in Arabic), Master's Thesis, Yarmouk University, Jordan.
Al-Sawah, F. (2002), Aram Damascus and Israel in History and Biblical History (in Arabic), Fifth Edition, Damascus, Syria, Aladdin Publishing, Distribution, and Translation.
Al-Shawaf, Q. (2006), Palestine: The True Ancient History from Prehistory to the Abbasid Caliphate (in Arabic), 1st ed., Beirut, Lebanon, Dar Al-Saqi
Finkelstein, I. & Silberman, N. (2005). *The Bible Unearthed* (in Arabic). (1st ed). Syria: Safahat for Studies and Publishing.
Halayqa, I. (2024), The Written Canaanite Linguistic Heritage of Palestine (in Arabic), (1st ed.), Ramallah, Palestine, Palestinian National Library.
Ibrahim, M. (2010), Studies in the Archaeology of Palestine (in Arabic), Amman, Jordan, Dar Al-Barakah Publishing and Distribution.
Kafafi, Z. (2019), Palestine during the Iron Age I (circa 1000-1200 BC): A Comparative Study between Biblical Narratives and Archaeological Data (in Arabic), Adumatu Journal.
Manasra, I. (2013), Canaanite Palestine (A New Reading in the History of Ancient Palestine) (in Arabic), Amman, Jordan, Al-Sayel Publishing and Distribution.
Maqdisi, F. (2011), The Hyksos in History (in Arabic), Al-Ma'rifa Journal, Volume 50, Issue 576, Ministry of Culture and Guidance, Damascus, Syria, pp. 348-357.
Shaaban, T. (2013), Ancient Kingdoms of Syria: The Library of Ebla and the Levant (in Arabic), 1st ed., Damascus, Syria, Safahat Publishing and Distribution
Soden, W. (1908). Introduction to the Civilizations of the Ancient East (in Arabic). Translated by Donald, G. Schley. Michigan: William B. Eerdmans Publishing Company Grand Rapids.
Taha, H. (2000), Relations between Egypt and Canaan in the Bronze Age (in Arabic), 15th Conference on Archaeology and Cultural Heritage in the Arab World, Damascus, Syria, 2000, Arab League Educational, Cultural and Scientific Organization
Thompson, T. (1995). The Ancient History of the Israelite People (in Arabic). (1st ed). Lebanon: Bissan. Publishing and Distribution.

5.3 المراجع الأجنبية

Agranat-Tamir, L et al.(2020), The genomic history of the Bronze Age southern Levant. Cell 181.5 p 1146 - 1147

Haber, M, et al.(2017), Continuity and admixture in the last five millennia of Levantine history from ancient Canaanite and present-day Lebanese genome sequences. The American Journal of Human Genetics 101.2,

Harney, É, et al (2018). Ancient DNA from Chalcolithic Israel reveals the role of population mixture in cultural transformation. Nature communications 9.1, p 8-9.

New Readings in the First and Second Urbanization Eras of the Ancient History of Palestine - From City Construction to the Establishment of the Canaanite Hyksos Empire

Faisal Zakarneh
Independent researcher, science and archaeology
Corresponding Author: faisalz2012@yahoo.com

Received: 14/5/2025. Revised: 22/5/2025. Accepted: 22/9/2025. DIO:

Abstract
Objectives: The research provided a new reading that proposed a precise identification of the Canaanites based on genetics and genetic engineering and dealt with the most prominent features of their material and immaterial civilization that set the basis of the first and second eras of urbanization in Palestine. The research refuted the alleged biblical claims about some historical events that distorted the history of that period, the most important of which is the Amorite invasion or migration to Palestine and the entire Canaan, and the accompanying alleged migration of the Prophet Abraham and his family that deemed to be the beginning of biblical history. The research also focused on the development and maturity of the Canaanite political structures, resulting in the establishment of a Canaanite empire that represented the first central state for the Canaanites in the region, the Hyksos state. This refuted the views of many researchers about the inability of the Canaanites to establish their own central state, and the decline of their political experience in the city-state system. Methodology: The research adopted the historical and descriptive analytical methods, analyzing historical narratives and scientific criticism to reveal distortions, alongside a new methodology based on genetic studies and environmental and climate sciences, providing modern and neutral readings. Results: The research contributes to providing a new integrated vision about the Canaanites and their prominent role in that period, based on scientific evidence resulting from modern archaeological excavations, neutral historical data, in addition to the results of genetic studies, environment and climate sciences. All these new readings provide a comprehensive realistic scene of the first and second eras of urbanization as a milestone in the ancient history of Palestine.

***Keywords*:** Canaanites, history of ancient Palestine, genetic studies, first urbanization, second urbanization, Hyksos